الفصل السادس

تفصيل موضوع الأخلاق

لقد ذكرنا فيما تقدم أننا نعرض أصول قيام المجتمع الاسلامى فى صورة مجملة وقلنا ان كل نقطة من هذه النقط تحتاج الى شروح وتفاصيل يمكن أن يساهم فيها كل مفكر بجهده ... لتعميقها وزيادة الايضاح .. وسنأخذ هنا على سبيل المثال تفصيل موضوع الأخلاق وبيان رؤيتنا له خاصة مايتعلق بفكر الجزاء الذاتى لأننا نجد عليها اعتراضا من بعض رجال الدين كما أن قيام المجتمع الاسلامى لا يتم فقط بمجرد قيام القوة بل لابد أن يتكامل بفكرته عن الأخلاق وسنرى بعد هذا العرض قدسية الدين وسموه عن كل ما أتى به الفكر البشرى فيما يختص بقيام المجتمع المثالى الذى يحيا كل فرد فيه حياة مثالية طالما دارت فى أحلام البشر ولكنهم لم يصلوا اليها ولم يحددوا مواصفاتها .. وسنرى أن الجزاء الذاتى هو بؤرة الاشعاع التى تكشف لنا عظمة هذا الدين وأنه وحده مصدر للهداية للبشر دنيا وأخرى .

لقد بينا أن فكرة الأخلاق تقوم على دعامتين :

١ ــ الدافع الخلقى . ٢ ــ القيم الخلقية .

ولقد تناول رجال الدين والفلسفة هذين الأساسين بالتفسير فعن الدافع قال رجال الفلسفة : انه الجزاء القانونى أو الاجتماعى من الاستحسان والاستهجان وكذلك لم يتفقوا على القيم فما يكون خيرا فى مكان يكون شرا فى مكان آخر وما يباح فى شعب يحرم عند غيره فالخمر تباح فى مكان ، وتمنع فى آخر وعلى ذلك فالانسان يعايش القيم معايشة خارجية لا يحس بأصالتها فى ذاته وانما يخضع

لتقاليد المجتمع والقانون الذى يعيش فى ظله ولا يشعر بالدافع الذاتى تجاه العمل الخلقى فالأخلاق اذن لا تكون أخلاقا بالمعنى الصحيح وانما هى عادات وتقاليد تفرض على الانسان من الخارج وليس له يد فى تكوينها وبذلك يكون الصواب أخطأهم فى الناحيتين ناحية الدافع وناحية القيم الثابتة التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان . على أن فريقا منهم كان أكثر صوابا ، بالنسبة للدافع فقالوا بالواجب أو الضمير أو الحاسة الخلقية وهنا نراهم قد اقتربوا من معنى الجزاء الذاتى مجرد اقتراب لأنهم لم يوضحوا لنا القيم الخلقية التى يشعر الفرد ازاءها بهذا الدافع الداخلى ومن ناحية أخرى نرى أن رجال الدين قد أجمعوا تقريبا على أن الجزاء الخلقى هو الجزاء الأخروى وحده وان كانوا قد التزموا بالقيم الخلقية الأصيلة فى الدين وهؤلاء قد أخطأوا أيضا فى مفهوم الخلق لأنهم اقاموه على جزاء خارجى من الرغبة فى الجنة أو الرهبة من النار . وهنا نجد رجال الدين والفكر جميعا قد قصرت افهامهم عن المعنى الصحيح للأخلاق ، فالفريق الأول من رجال الفلسفة قد جانبهم التوفيق فى المسألتين : تحديد الدافع اذ أقاموه على جزاء خارجى من المجتمع والقانون ثم عدم اتفاقهم على القيم ، والفريق الثانى منهم اقترب من الصواب من ناحية الدافع ولكنهم لم يحددوا لنا القيم .

أما رجال الدين فقد أخطأهم التوفيق من ناحية الدافع اذ أرجعوه الى الجزاء الأخروى مع اتفاقنا معهم على القيم .

أما نحن فقد اهتدينا بعون الله الى تلافى أخطاء الفريقين وبينا مقصود الدين فى موضوع الأخلاق حينما عرفنا الدافع بأنه الجزاء الذاتى مع اتفاقنا مع رجال الدين على القيم الخلقية الدينية واثبتنا عمومية الدين وصلاحه لكل زمان ومكان وأنه رحمة للبشر جميعا

فـــلا يختص بمجتمع معين يختلف عن مجتمع آخر ولا لزمـــان عن زمان .. فأى فرد يؤمن بالجزاء الذاتى وبالقيم الدينية لا يخضع لتقاليد مجتمع خاطئة أو لعادات شعب منحرف وانما يقوم بتصحيح هذه العادات والتقاليد حتى تستقيم على المنهج الســـوى الذى شرعه الدين . وبما أن الدين تعبير عن الفطرة الانسانية فسيثق المؤمن أن كل ما أمر به الدين يصادف هوى فى نفسه واطمئنانا فى قلبه فلا يعايشه معايشة خارجية كما لا يخضـــع له خضوعا أعمى ولا يقوم به تحت تأثير الرغبة أو الرهبة وانما يستجيب له تلقائيا كما تهفو نفسه لأى شيء جميل ، وحتى ندلل على صـــدق نظرتنا والأعماق البعيدة التى تؤدى اليها نبحث موضـــوع الحرية كما قدمه فلاسفة السياســة وكما يقدمه لنا الدين فى هذه الصـــورة التى ألهمنا الله اياها ولا ندعى أن لنا فضلا فيها وان كان لنا فضـــل فهو فى تلقيها لا أكثر .

ومشكلة الحرية متشعبة عند كثير من الفلاســـفة ولقد دارت حولها أبحاثا ضخمة متنوعة على مر التاريخ ولكنا هنا سنحاول أن نستخلص تعريفا لها بعد غربلة كل ما قالوه فى موضـــوعها . فأقصى ما وصل اليه الفكر البشرى حتى الآن أن الحرية لها جانبان أو مفهومان : مفهوم سلبى ، ومفهوم ايجابى . المفهوم السلبى هو فك القيود ، والمفهوم الايجابى هو حق المساواة لكل فرد فى منجزات شعبه ، أى أن المفهوم السلبى هو حرية العبد فى عتقه أو حرية الأمة المستعمرة فى جلاء الغاصب عنها أو حرية شـــعب مستعبد بزوال الطاغية .. والحرية بمعناها الايجابى هى حرية كل انسان فى أن ينال من الحقوق الاجتماعية ما يناله غيره . وقد انتهى فلاسفة السياسة الى حصر هذه الحقوق وتقريرها فى ست حقوق أساسية هى :

١ — حق الأمن وصيانة الحرمات .
٢ — حق التعبير عما يجيش فى النفس من افكار .
٣ — حق المساواة أمام القانون .
٤ — حق التعليم فى كل مستوياته .
٥ — حق العمل فى كل مستوياته .
٦ — الحق السياسى فى كل مستوياته .

ثم اضافوا مع ضمان المستوى الاقتصادى الذى يكفل ممارسة هذه الحقوق هذا اقصى ما وصل اليه العقل البشرى حتى الآن فى موضوع الحرية . واذا كنا نعلم أن الفلسفة بلغت مرحلة النضج فى البلاد اليونانية قبل الميلاد بخمسة قرون فمعنى هذا أن ما نقرره هنا هو الجهد البشرى على مدى خمسة وعشرين قرنا . واذا علمنا أيضا أن فى كل قرن نبغ اكثر من فيلسوف ووضع اكثر من بحث ، وفى القرون الأخيرة بالذات زاد عدد الفلاسفة والمفكرين بتيسير وسائل الطباعة وكانت نتيجة كل هذه الجهود هى الوقوف عند هذه الحدود .. عندئذ نبدأ بعرض موضوع الحرية فى الاسلام وسنرى هداية الدين فى اخطر مشكلة صادفت البشرية وكيف تعرض لحلها وكيف أضاء لنا وجه الصواب فيها بصورة منقطعة النظير .

الدين يرى الحرية الحقيقية هى حرية الفرد فى تحقيق ذاته وتحقيق الذات هو فى اشباع ملكاته العليا كلها بصورة متساوية متكاملة فلا تحجب ملكة مهمة اخرى ثم قام بتحديد هذه الملكات وهى الايمان والخلق والعقل والحب مشيرا اليها فى سورة العصر بقوله : **« والعصر . ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »** (١) وتحديد

---

(١) سورة العصر .

الخصائص والملكات لا يكفى بل لابد من بيان كيفية استثمارها لتؤدى وظيفتها متساندة متآلفة حتى تصل بالانسان الى درجة الكمال الممكن . ونبدأ بالخلق ، فلو قلنا ان الدافع الخلقى هو الجزاء الأخروى كما يقول المفكرون الدينيون فمعنى ذلك أن ملكة الخلق ستبقى عاطلة لا عمل لها ولا تجد اشباعها لأنه مادام الجزاء خارجيا فان المرء سيعايش القيم الخلقية معايشة خارجية وكأنها شيء غريب عنه طارىء عليه وليست تعبيرا عن ذاته أو عن الملكة الخلقية فى ذاته . أما لو حددنا الدافع الخلقى بالجزاء الذاتى فمعنى هذا أن العمل الخلقى تعبير عن ذات الانسان واشباع لاحدى ملكاته وتحقيق ذاته فى مجال الأخلاق . ولكن الدين لا يقف بنا عند هذا الحد ولو انه أوضح لنا هذا المفهوم وحده لكان فضله لا ينكر لأنه بهذا التحديد يكون قد وضع الحل النهائى لهذه المشكلة المعقدة : مشكلة الأخلاق . ولكنه بعد ذلك يقول لنا ان الجزاء الذاتى هو نقطة انطلاق الى الحرية الشاملة للذات الانسانية فلو تأكد كل فرد من هذا المعنى للأخلاق وسرى فى المجتمع كله مفهوم الجزاء الذاتى فسيترتب عليه حتما المبدأ الذى يليه وهو (الحق من طريق الاقناع) وبذلك تتاح الفرصة كاملة لاشباع الملكة العقلية فلا يستطيع طاغية أن يفرض على شعب نظاما معينا أو يقيد حرية الفكر فلا يسمح الا بما يوافق هواه مما يتسبب عنه شلل الملكة العقلية والخسارة الضخمة التى يصاب بها المجتمع من انعدام الأفكار السليمة ، فمبدأ الحق من طريق الاقناع ضرورة انسانية لأن العقل ينتعش بما يأخذ ويعطى من الفكر فيتحقق عنصر آخر من عناصر الذات هو الملكة العقلية التى لا تجد اشباعها الا فى جو من الحرية كما عبر عنه القرآن بقوله : « **وتواصوا بالحق** » أى يوصى بعضكم بعضا باتباع الحق .. ولا يتم ذلك الا بالبحث الحر

والنقاش حولّ المسائل من وجوهها المختلفة حتى يستبين وجه الصواب .. وباتباع هذين المبدأين .. الجزاء الذاتى والحق من طريق الاقناع تتوفر الثقة . واشاعة الثقة فى المجتمع عنصر أساسى فى شد أركانه وتماسك بنيانه وفى غيابها يتبدد الشمل وتنحل الروابط وتسود الفوضى . أما اذا توافرت هذه القيم الثلاث فيمهد السبيل للحب وبذلك يحقق المرء عنصرا آخر فى ذاته وهو الجانب العاطفى . واذا تحققت هذه القيم مجتمعة فمعنى ذلك حرية الفرد فى تحقيق ذاته وهذه هى الحرية العظمى التى اختص الدين بالكشف عنها ووضع الحل النهائى لها بحيث لا يطمع أحد أن يصـــاغ الحل افضل من هذه الصورة التى أوحى بها الدين . واذا حقق كل فرد ذاته بهذه الكيفية فقد تحققت الحياة المثلى على أكمل صورة لم يكن يحلم بها مفكر أو فيلسوف .

وهـــذه المعجزة القرآنية لم تأت فى عدة بحوث بل جاءت فى سطر واحد من القرآن الكريم وبهذا يكون الدين قد وضع فلسفة للحياة أو عقيدة للحياة ظلت خافية عن الجميع حتى جاء أوانها بعد أن تخبطت البشرية وأصـــابها الدوار بين مختلف المذاهب والآراء .. وحتى تبدو لنا عظمة التوجيه الدينى نعود الى المقارنة بين مستويات الفكر كله وبين الدين ، فالحرية بمعناها السلبى كانت أملا حينما اشتد ضغط المستبدين على شعوبهم . والحرية بمعناها الايجابى أى الحرية الاجتماعية أو السياسية بدأ التنبه اليها حينما كان فريق من الأمة يتمتع بكل الامتيازات والحقوق والباقى محروم منها ثم انتهوا بعد هذا المشوار الطويل الى تقرير هذه الحقوق الست ، تناولوها على مدى التاريخ واحدا بعد آخر وكل حق من هذه الحقوق كان نتيجة دراسات مستفيضة وصراعات

منطقية بل ودموية حتى استخلصت هذه الحقوق .. وكان هذا منتهى طاقة الفكر البشرى بعد تجارب العمر الطويل الذى امتدت عشرات القرون .. بل أن هذه الحقوق مقررة على الورق فقط محروم منها معظم البشر وبدأ الفكر المضاد يتصارع معها مرة أخرى لتعود البشرية الى سابق عهدها من الاستبداد والهمجية عن طريق المذاهب الاشتراكية التى اتخذت كلمة العدالة شعارا مضللا تخفى تحته شر ما يبيت للجنس البشرى من الكبت والقهر وسلب الحقوق التى أجهدت الفكر طوال تاريخه للوصول اليها عن طريق الارهاب والتجسس الذى يعطى عصابة الحكم وحدها حق السيطرة على جميع السلطات ، وهنا تبدو عناية الله للبشر فى هداية الدين الى بيان أفضل منهج للحياة يتمتع فيه كل فرد بتحقيق ذاته ثم تكون جميع الحقوق الاجتماعية والسياسية التى كانت محط آمال البشر نتيجة حتمية لتحقيق الذات ، وبهذه المقارنة الحرة الواعية بين منهج الدين ومنهج الفلسفة يتجلى لنا الاعجاز الدينى فى أبهى صوره .. هذا مع أن الدين جاء به رجل لم يقرأ ، ولم يكتب ، ولم يتلق علما عن بشر ، وانما نشأ فى الصحراء منذ أربعة عشر قرنا ، أما الدراسات الفلسفة فقد قام بها كل المفكرين من البشر على مر التاريخ حتى وقتنا الحاضر فهل يبقى شك بعد هذا الوضوح فى رسالة الدين وأنه وحى الهى تنزل على الرسول كما أخبرنا القرآن فى قوله : « **وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** » (١) . وشىء آخر فالنظام الديمقراطى كفل للفرد هذه الحقوق الستة وجعل وسيلته للمحافظة عليها هى القانون والقانون لا يتعامل الا مع الظاهر ولا يمكنه التغلغل الى طوايا الضمير ولذلك فيمكن عن طريق الخداع المنطقى العبث بهذه الحقوق

---

(١) النمل : ٦ .

وقد رأينا ان السلطة التنفيذية حتى فى أعرق الدول ديمقراطية كثيرا ما تعتدى على بعض هذه الحقوق أما حينما يتمتع الفرد بالحرية الانسانية أى حريته فى تحقيق ذاته فانه لا يسعى الى العبث بأى حق من هذه الحقوق بل يسعى مخلصا الى تدعيمها والحفاظ عليها لأن فى تدعيمها تمكين لحقه فى التمتع بمزاياها . وشىء ثالث : فالحقوق الاجتماعية فى النظام الديمقراطى غايتها المصلحة أما فى المجتمع الدينى فان الدافع والغاية هى الصلاح أولا ، وستكون المصلحة متحققة عندئذ بكل تأكيد . فأهمية الحرية الانسانية كما يوضحها الدين لا تجعل أحدا يحاول أن ينتقص من حقوق غيره لأن هذا يتناقض مع تحقيق ذاته فلا محل هنا للخوف من القانون أو استهجان المجتمع وانما هو حرص الانسان ذاته، وفى ذلك وحده كله الضمان أما فى المجتمع الديمقراطى الذى يقوم على القانون فان الفرد الذى يجد الفرصة ليعتدى على حقوق غيره خلسة من القانون أو خفية عن المجتمع فلن يتردد مادامت الغاية هى المصلحة لا الصلاح .. أما فى المجتمع الدينى فلا تعارض بين المصلحة والصلاح . فالفرد يعمل على تحقيق ذاته ببذل ما فى طاقته من خير وفكر وحب للجميع وفى نفس الوقت يتلقى من المجموع كل ما عنده من خير وفكر وحب بلا تكلف ولا اكراه .. وهذه العقدة التى قام بحلها الدين وحده هى التى عجزت كل فلسفات البشر أن تجد لها حلا وانما هى محاولات تميل الى الفرد حينا والى المجتمع حينا آخر ولا راحة فى أى الاتجاهين . فهل نطمع من البشر بعد هذا الوضوح أن يفيئوا الى الحق وينصفوا أنفسهم فينقذوها من التخبط فى متاهات المذاهب وضلالات الفكر البشرى فنحن هنا لم نقدم لهم خدعة جديدة نصرفهم بها عن تحقيق أملهم فى الحرية والكرامة أو نحتال عليهم بالآمال المعسولة لتتسلط عليهم ونتخذهم مطية لتحقيق غرض خبيث وانما نقدم لهم

الحق وحده منزها من كل غرض مبرأ من كل غاية الا الاخلاص لله ولدينه الذى فيه تحقيق كل آمالهم .. ولم يكن جهد الدين قاصرا على حل مشكلة الحياة وهداية كل فرد الى تحقيق ذاته لأول مرة فى التاريخ بحيث يقام الفردوس الأرضى بل هدى البشر الى الايمان بالله واليوم الآخر وجعل الفردوس السماوى جزاء على اقامة الفردوس الأرضى وبذلك يكون الدين قد هدى البشر الى سعادة الدنيا والآخرة معا والربط بينهما ، وليس كما يتصور المتدين أن الدين تكليف شاق بالعبادات والخيرات لنيل الثواب الأخروى دون الاهتمام بهذه الحياة ووضع حل لمشاكلها مما جعلهم يعتمدون فى حياتهم على علوم السياسة وحدها مع اننا رأينا هنا أن الدين قد وضع المثل الكامل لنظام الحياة ووضع قدم الانسان على طريق السعادة فى عالم الغيب والشهادة .. بل أن مما يدعم الايمان بالغيب هو عجز الفلسفات السياسية عن ايجاد حياة افضل على كثرة ما كتب فى فلسفة السياسة من بحوث بينما يقدم الدين الحل الصالح فى بضع كلمات مما جعلنا نؤكد أن الجزاء الذاتى هو بؤرة الاشعاع التى تكشف لنا عظمة هذا الدين وانه رسالة سماوية معجزة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وهذا ما جعلنا نفرد لبحث الأخلاق تفصيلا خاصا لالقاء الضوء على فهمنا له حتى لا يختلط بمفهوم آخر ودليلنا على صدقه هو أنه يوصل الفرد الى تحقيق ذاته واقامة الحياة المثلى التى عجزت عنها الأفكار السياسية ... فالدين نظام شامل للحياة يعلم الانسان كيف يحسن صلته بربه بعد أن يهيء له المناخ النظيف والحياة الطاهرة فتسمو روحه وتصفو نفسه ويكون أقرب الى الله .

والعالم الآن قد تبلبلت افكاره وتشتت مذاهبه ولا خلاص له الا فى اسلام أمره لله رب العالمين ولا عذر بعد ذلك لمقصر أو متهاون

عن سلوك هذا السبيل .. ونحب أن نلفت نظر الجميع أن من هنا فقط نقطة الابتداء لاقامة مجتمع اسلامى وليس بمحاولة تقنين الشريعة التى انفق فيها علماء المسلمين سنين طوالا ، فقيام المجتمع الاسلامى أولا على الاخوة والأخلاق ثم بعد ذلك يكون تقنين الشريعة وليس العكس لأن تطبيق الشريعة على مجتمع غير اسلامى غير مأمونة العواقب مادام الانسان لا يعرف حكمة التشريع بل أن تطبيق الشريعة على هذا الوضع القائم يزيد الانسان نفورا من الدين مادام الدين لم يقدم له حلا لمشكلة الحياة فاصلاح النفوس مقدم على تطبيق الشريعة وتطبيق الشريعة على مجتمع لم يهيأ لها نفسيا يدفعه الى التحايل عليها لأنه غير ملائم لها ولا هى ملائمة له فقيمة الشريعة أن يتقبلها المرء باخلاص ويسعد بجدواها ولا يراها قيدا على نزواته .. كما نحب أن نلفت النظر أن من مزايا الاسلام أن الجانب التطبيقى فيه منبثق من الأساس النظرى وقائم عليه فلا يقوم بذاته ولا ينفصل عنه ، والأساس النظرى هو التصور الشامل وموقف الانسان منه ، فلا يحصر نفسه فى مادياته وحدها أو فرع من فروع العلوم دون أن يكون على علم بوجود الخالق جل وعلا وصفاته واسمائه الحسنى وكذلك موقف الانسان من وجوده ومصيره وغايته من الحياة وما بعد الحياة .. وهذا التصور الكلى يعطى الانسان فسحة فى النظر الى أقصى ما يستطيع فينتشله من التقوقع فى احدى جزئيات الحياة التى تعطل كثيرا من اهتماماته الانسانية ، والدين وحده هو الذى يعطى الانسان التصور الصحيح الذى يترتب عليه السلوك الصحيح ويتجه به الى الغاية الصحيحة لأنه من عند علام الغيوب الذى أحاط بكل شيئا علما اما جهد الانسان فى هذا المجال فهو نوع من التخمين المتضارب الناقص لأنه نتيجة اجتهادات عقلية ليس فى طاقتها الاحاطة بهذا الموضوع

العريض أو التأكد من صحة هذه الاتجاهات .. فالأساس النظرى فى الاسلام ليس المقصود به الثقافة وانما العقيدة . والفرق بينهما أن الثقافة تقوم على العقل أما العقيدة فتقوم على الامتزاج بين الاقتناع العقلى والاستجابة الشعورية بنسبة متساوية واذا كان الاقتناع العقلى وحده قد لا يدفع الى العمل فان العقيدة يترتب عليها حتما العمل بموجب الاعتقاد ولذلك أجمع علماء الاسلام على أن العقيدة أصل والشريعة فرع ، أى أن التطبيق العملى مطابق للتصور النظرى ومتعلق به ... واذا تأملنا سر الهوان الذى لحق بالمسلمين فى عصورهم الأخيرة لا نجد له الا تعليلا واحدا هو غياب العقيدة القائمة على سلامة النظر للحياة التى تشبع الاقتناع العقلى وتلائم النزوع الفطرى . فاذا صحت العقيدة واستجابت لها النفس بملء رغبتها أيقظت من أشواقها الى المثل العليا فيتحول الشخص السلبى العادى الى قوة ايجابية فعالة يستسهل الصعب وتستهويه المخاطرة ويستعذب الألم فى سبيل ما يعتقد كما حدث لدى المسلمين الأوائل فينزع الى الجهاد فى كل ميدان : جهاد الفكر فى دحض الباطل والدفاع عن الحق . وجهاد الخلق فى التخلى عن الدوافع الدنيئة والارتباط بالدوافع النبيلة وجهاد الصلة بالله عن طريق العبادة فلا تثقل على المرء أو يركن الى التكاسل وهذه الدوافع تمد الانسان بالشجاعة فى الجهاد دفاعا عن هذه المزايا الانسانية فلا يتراجع أمام القوة الغاشمة التى تريد أن تسلب منه هذه المزايا فاما أن يحققها أو يموت دونها شهيدا فينعم بأجر الشهداء . وليس هذا من شطح الخيال بل هو تسجيل أمين لما حدث فى بدء الدعوة الاسلامية من هذه اليقظة غير المتوقعة التى بهرت العالمين ولعلنا بهذا نفهم حكمة الدين فى قول الله تعالى : **« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو**

خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون » (١) اى أن الجهاد اذا كان مكروها لما فيه من المشقة والمخاطرة الا انه الأصوب والخير ان تعرض المرء لفتنته عن دينه ، فهو الذى يضمن له العز فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ويوضح لنا القرآن هذا المعنى فى قوله : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، أن الله لقوى عزيز** » (٢) اى لو استسلم الناس للأشرار ولم يقوموهم لاستحوذوا عليهم وهدموا معابدهم وأفسدوا أخلاقهم فلا يذكر اسم الله ولا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر فيعم الأرض الظلام والفساد كما اشار الى هذا فى آية اخرى بقوله : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** » (٣) اى لولا أن الله فرض الجهاد على المؤمنين فى مقاومة الكافرين الظالمين لفسدت الأرض لسيطرة العصابة الباغية الظالمة التى تصد البشر عن شريعة الله التى فيها وحدها الهدى والعزة والرشاد ولكن الله ذو فضل على العالمين حينما جعل الجهاد فريضة من فروض الدين ليصبح زمام الأمر كله فى يد من قال الله فى حقهم : « **الذين ان مكناهم من الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور** » (٤) وذلك حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

هذه كلمة الحق أهديها الى المسلمين والى رجال الفكر منهم خاصة على أن دورى فيها هو دور المتلقى لا أكثر فهى اذن رسالة كل مسلم ودورى فيها دور كل مسلم ليس لى الا فضل تلقيها ..

---

(١) البقرة : ٢١٦ .
(٢) الحج : ٤٠ .
(٣) البقرة : ٢٥١ .
(٤) الحج : ٤١ .

وأنى باسم القرآن الكريم اتحدى هل كان يمكن أن يصوغ عقل بشرى منهجا للحياة بهذه المواصفات والوضوح وان يحدد معالمها بهذه الدقة وان يضع يده على مركز الاثارة فى نفس الانسان فينتقل فى تحقيق ذاته خطوة بعد خطوة حتى يصل الى تحقيق ذاته متكاملة فى خطوات طبيعية لا تكلف فيها ولا غموض . وحتى يكون التحدى واضحا لكل ذى نظر وانصاف نسأل : هل تغنى آلاف الأبحاث والدراسات الانسانية عن هذا المنهج المركز فى سطر واحد من القرآن الكريم ؟ أم أن هذا المنهج يغنى عنها كلها ولا تغنى كلها عنه؟ ونتناول هذه الدراسات واحدة بعد واحدة فنقول : هل استطاعت الدراسات الأخلاقية أن تحدد الدافع الخلقى بهذا المعنى الواضح وهو الجزاء الذاتى وكيف أن دافع الجزاء الذاتى يعتبر تحقيقا لذات المرء فى مجال الأخلاق ثم هو نقطة الانطلاق الرئيسية لتحقيق المرء لذاته على أوفى صورة واكملها ؟ وهل استطاعت الدراسات الاجتماعية أن توفق بين دوافع الفرد ودوافع المجتمع وان يكون كلاهما عونا للآخر فى بنائه لا عامل هدمه وان تكسر الحاجز بين رغباتهم المتناقضة فتجعلها تتلاءم بدل ان تتصارع ؟ .. ان معظم الدراسات الاجتماعية تميل الى حقوق المجتمع على حساب حقوق الفرد وهذه النظرة التى تضع الفرد فى جانب والمجتمع فى جانب خاطئة .. لأن العلاقة بين الفرد والمجتمع علاقة تكامل لا تناقض ومع صدق الشعور بهذا المعنى الا انه لم يستطيع اى باحث اجتماعى أن يوضح السبيل الى تحقيق هذه العلاقة قبل بيان الدين الذى قدمناه .. وهناك أيضا الدراسات السياسية التى تحدد حقوق الأفراد وعلاقة الفرد بالدولة ومدى سلطة الدولة وحقوق التشريع والرقابة ، وبعد غربلة هذه الدراسات المستفيضة نجدها تنتهى الى نظامين ..

نظام استبدادى يحرم الفرد كل حقوقه ويجعله ترسا في آلة المجتمع الكبير وهذا النظام كله عيوب ليس به مزية واحدة لانه باسم المســاواة والعدالة الاجتماعية يحرم الشــعب كل حقوقه الانسانية والاجتماعية ويجعله مسخرا كالرقيق فى سبيل القلة التى تطفو على سطح المجتمع تتمتع وحدها باقصى ما يحلم به ملك او امبراطور .

ونظام ديمقراطى بدأ البحث فيه منذ خمســة وعشرين قرنا وانتهى بتحديد حقوق الفرد الستة ومبدأ الفصل بين السلطات وهذا النظام بعضـــه مزايا وبعضه عيوب . اما مزاياه فهى أنه جعل الفرد نقطة انطلاقه ، ثم محاولة سلب السلطة الاستبدادية سطوتها بتحديد الحقوق الاجتماعية ومبدأ الفصل بين السلطات ولكن الغاية من هذا النظام هى تحقيق المنفعة وحدها دون البحث فى اقتران بين المنفعة المادية والمتعة الروحية ثم انها ترتكز عـــلى سلطة القانون ، والقانون لا صلة له الا بالظاهر وليس فى مقدرته الوصول الى إدراك الدوافع النفسية أو صلاحها . لذلك يكمن فى ثوب براق على انه الحق وان يبذل كل صاحب منفعة جهده فى الخداع المنطقى للوصول الى هدفه ما دامت الغاية هى المنفعة . غير ما ثبت من إن السلطة التنفيذية لا تكبح جماح شهوتها فى التسلط وتحقيق مآربها رغم أنف القانون .. هذان هما النظامان من وضع البشر . اما النظام الاسلامى فكله مزايا وليس به عيب واحد ولسنا نحصى مزاياه هنا .. فهى أكثر من أن تحصى ولكن نذكر بعض مزاياه مقـــارنة بالحسن النظامين السابقين .

١ ـــ فالنظام الاسلامى يرتكز على اساس أخلاقى ولا يبدأ من فراغ كالنظام الديمقراطى .

٢ ــ النظام الاسلامى صاغ حقوق الحرية الانسانية تعبيرا عن ملكات الانسان العليا أما النظام الديمقراطى فقد حصر نفسه فى الحقوق الاجتماعية وحدها .

٣ ــ النظام الاسلامى أهدى الانسان حريته فى تحقيق ذاته وهى أسمى نموذج من نماذج الحرية بلا ثورة ولا نزاع . أما الحقوق الاجتماعية فلم يقرر كل حق منها الا بعد فيض من الدماء .

٤ ــ النظام الاسلامى جعل تحقيق الحرية الانسانية ضمانا لتحقيق الحرية الاجتماعية وتدعيما لها وقد بينا أن الحرية الاجتماعية بدون الحرية الانسانية عارية من الضمان .

هذه بعض مزايا النظام الاسلامى بالمقارنة الى أكمل نظام بشرى ، أما مزاياه فهى شىء غير محدود وهذه هى احدى النعم الالهية التى تفضل الله بها على عباده والتى تجعلنا ندرك معنى قوله تعالى : « **اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » (١) ... والآن هل نقرأ هذا كما نقرأ رواية مسلية ثم نلقيه لنستأنف حياتنا التى الفناها ونستكين لما نعانيه من تعاسة وشقاء وانحطاط ؟ أم نحزم أمرنا كله ونعبىء جهدنا كله للعمل على تحقيقه وانقاذ انفسنا مما نعانيه ؟ ان قيام المجتمع الاسلامى المرتكز على الاخوة والأخلاق كما أوجبه القرآن وطبقه الرسول فى صدر الاسلام هو الضمان الوحيد الذى لا بديل له ولا يغنى عنه غيره فى صيانة حقوق الفرد والأمة وهو الحصن

---

(١) المائدة : ٣ .

الحصين الذى يتصدى لكل طاغية أثيم وكل العبارات الطنانة عن الحرية والديمقراطية لا قيمة لها أمام استبداد السلطة التنفيذية ولقد مضى على الأمة الاسلامية عشرات السنين بل ومئات السنين وهى تسمع عن الوعود الخلابة والمشروعات الوهمية التى لا يقصد بها الا استمرار الحكام فى مقاعدهم ، وما دام المجتمع الاسلامى ممزقا متفرقا لا يملك من أمره شيئا فسيخطو كل يوم خطوات الى الوراء وكل محاولة لعرقلة هذا النظام الدينى هى خيانة محققة ولا نظن ان شعبا بلغ حد السفه يرى طريق الخلاص واضحا ثم ينكص على عقبيه كما لا نظن أن حاكما يقف فى طريق ذلك مهما يكن مجردا من الشرف والضمير . وهذا المجتمع الاسلامى الذى ندعو المسلمين اليه لتكون كلمة الله هى العليا ندعو أيضا غير المسلمين بالعقل والمنطق الى تدبره وانه ليس ضد أحد ولما هو دعوة خالصة الى الانسان حيث كان . لقد انتشرت فى العصر الحديث عشرات النظريات السياسية والاجتماعية وكلها انحرافات ومغالطات فاذا كنا نحن المسلمين نقيم هذه الحياة على انها اوامر الهية ترفع الانسان الى مستوى انسانيته الحقيقية وتصله برب هذا الوجود وتضمن له سعادة الآخرة فاننا نطالب غيرنا أن يأخذوها كمنهج حياة افضل من كل ما عرض عليهم من النظريات الفكرية السائدة . لذلك ندعو الشعوب وهم ضحايا الأفكار المختلفة أن يتدبروا ما عرضناه من الهداية الدينية ليحكموا بأنفسهم هل هناك صلاح لهم الا فى ظل هذا المنهج وهذا النظام . فنحن لا ندعو الى قيام المجتمع تعصبا ضد شعب أو دين وانما ندعو كل شعب واهل دين أن يفسحوا صدورهم لما نقول وان يعاونوا فى تطبيقه رحمة بأنفسهم فى هذه الحياة المحدودة على الأقل ان لم يستطيعوا أن يتخلصوا من رواسب معتقداتهم فيؤمنوا به كتعاليم الهية .. ثم

نعود الى المسلمين لنقول لهم ان التكاسل فى تطبيق هـذا النظام كفر بنعمة الله عليهم فليثبتوا للعالم أولا أنهم جديرون بهذه النعم عند ذلك سوف تفيق الشـعوب المخدوعة والمغلوبة على أمرها لترى نعمة الله مجسدة فى سلوك المسلمين ، وعندها لن نحتاج الى دعوة أو دعاية للاسلام لأن تطبيقه وحده هو الدعاية المجدية فالدعوة بالكلام لا تكفى بل لا تجدى ما دام العالم يرى أن المسلمين أبعد ما يكونون عن العمل بدينهم وتطبيق تعاليمه ومن يتكاسل بعد هذا فهو خائن لدينه وربه وانسانيته وتذكروا قول الله تعالى : « **واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ، ثم توفى كـل نفس ما كسـبت وهم لا يظلمون** » (١) .. فنحن لم ننظر الى القرآن كنظرات السـابقين من المفسرين الذين تناولوه آية آية أو سورة سورة ووقفوا عند بيان معانيها أو نظروا الى أحكام الاسـلام من حيث بيان الحـلال والحرام أو التركيز عـلى العمل به لنيل الثواب فى الآخرة وانما ركزنا فقط على هدى القرآن كنظام ومنهج للحياة هنا على الأرض بحيث يثبت تفوقه على كل النظم الأخرى التى تناولت هذا الجانب بالذات وذلك مع ايماننا بالله وباليوم الآخـر وما فيه من الثواب والعقاب ، وبهذه النظرة ندرك مدى سـمو الاسلام وجلاله وننبه الى ناحية هامة غفل عنها دارسو الدين اذ ركزوا كل جهدهم على النظر الى الآخرة وحدها ولم يتنبهوا الى عظمة الاسلام فى وضع فلسفة للحياة تفوق ما عداها وتؤكد قدسية الدين والاطمئنان إلى تنزيله من رب العالمين .. فقضية الدين فى محك الاختبار العصرى لا تقف عندما وقف أسلافنا من علماء التفسير والفكر والكلام ، فهذه مسائل قاموا بواجبهم فيها وأثبتوا تفوق الدين فى مشكلة الالوهية

---

(١) البقرة : ٢٨١ .

ومسائل التشريع بالمقارنة الى الفلسفيات والقوانين التى كانت سائدة فى عصرهم وقد ثبت لدى كل منصف حتى ولو لم يكن مسلما سلامة النظرة القرآنية ازاء هذه المسائل والمشكلات ... ولكن قضايا عصرنا اليوم تختلف عما سبقتها وما تناولها السلف الصالح . انه عصر النظم السياسية والإيديولوجيات الشاملة لمعنى الحياة والمناهج الموصلة الى غايته كما يتراءى لكل فريق والبحث عن عقيدة للحياة تحيط بنشاط الانسان كله وتوجهه وجهة معينة ظن أصحابها انها أقوم طريق .. فاذا لم ننتبه الى هذه الناحية وندرك موقف الاسلام منها وتفوقه على كل ما قدمه الفكر البشرى كما فعل أسلافنا بالنسبة لقضايا عصرهم فلا نكون مقصرين فحسب بل نكون قد خسرنا قضية الدين كله بحيث لا يغنينا كل ما قدم السابقون من أفكار وما وقفوا عنده من تحليل وتفصيل .. فنحن لا نخدم ديننا اليوم بعرض آراء الاقدمين وان كنا نجزم باهميتها لأنها جوانب اساسية فى الاسلام وانما نخدم ديننا حينما نستخلص من تعاليمه نظاما ومنهجا للحياة يحيط بنشاط الانسان ويوجهه الى أقرب غاية ويتفوق على كل النظم الحالية .

ولنعرض بصورة موجزة موقف أسلافنا وكيف قاموا بواجبهم فى تصديهم لمشكلات عصرهم واستنباط الأحكام الالهية من القرآن التى أثبتت اعجازه فى كل مجال .

نزل القرآن على رسول الله ﷺ حيث كانت عبادة الأصنام التى يقولون انها تقربهم الى الله وكان التركيز على الآيات التى تتحدث عن توحيد الله وتنزيهه واثبات وجوده وكمال صفاته ، فلما انتقل الرسول ﷺ الى المدينة واقام المجتمع الاسلامى بدولة المدينة نزلت الآيات مفصلة أحكام الاسلام ، وكان الصحابة يتلقون تفسير ما غمض عليهم من الرسول مباشرة ، فلما انتهى عصر الخلفاء الراشدين

وجاءت الدولة الأموية قام فى عهد التابعين امامان جليلان بوضع علم الفقه وهما الامام مالك بالمدينة والامام أبو حنيفه بالعراق فدونوا احكام الاسلام بنظرهم فى الكتاب وسيرة الرسول ﷺ ، ولما انتشرت الفتوحات الاسلامية ودخل الناس فى دين الله أفواجا خشى المسلمون تفشى اللحن فى اللغة العربية فقاموا بوضع علم النحو وقواعده التى تحفظ صحة نطق اللغة وتدوينها ، وكان لابد من قيامهم بهذا العمل الجليل لأن العربية لغة القرآن والحديث .. وفى عهد الدولة العباسية بدأت ترجمة التراث الحضارى الى اللغة العربية فلم يقف علماء المسلمين مذهولين أمام هذا السيل الجارف وانما نظروا فيه ثم نظروا فى كتابهم وبينوا صواب حكم القرآن بالمقارنة الى كل ما ترجموه .. فالفلسفة اليونانية سبقت الاسلام بأكثر من الف عام فى نظرتهم الى الوجود والموجد وقالوا أقوالا كثيرة منها الخطأ ومنها الصواب فتصدر علماء التوحيد لكل هذه الآراء وناقشوها وبينوا ما فيها من خطأ أو صواب على هدى فهمهم للقرآن ، فلو لم يكن القرآن قد جاء بالرأى السديد فى هذه المشاكل ولو لم يوجد من بين علماء المسلمين عباقرة أثبتوا تفوق القرآن على كل ما سبقه لانتهى دوره عند ذلك .. وحينما نظروا فى شريعة الرومان التى سبقت الاسلام بقرون كثيرة وكانت أرقى ما وصل اليه الفكر البشرى من قوانين قام علماء أصول الفقه ووضعوا قواعد علم الأصول وكيفية استنباط الأحكام وأثبتوا تفوق الدين أيضا فى كل تشريعاته بالمقارنة الى هذه القوانين .. ثم توقفت قوة الدفع الأولى لما لعبت الأهواء السياسية والمطامع الشخصية فانقسمت دولة الاسلام الى دويلات ينازع بعضها بعضا ولم تقف الكارثة عند هذا الحد بل جاءت غزوات الشمال من الصليبيين وغزوات الشرق من الوثنيين وحملات التتار فأضعفت شوكة

المسلمين لما حل بديارهم من الخراب وتقوقعوا فى اماكنهم بينما سطت أوروبا على كنوزهم العلمية والفكرية فكانت منطلقا لما وصلوا اليه من التقدم وازدهار العلوم وتأصيل فلسفات الأخلاق والسياسة والاجتماع ووضعوا المذاهب للعمل بالبراهين ولم يقفوا عند هذا الحد بل صاغوا نظريات شاملة للحياة ، وجعلوها ركيزة للمعتقدات السياسية والاجتماعية حاولوا بها اصلاح الحياة لتناسب تقدمهم العلمى .. وهنا نقول : ما موقف الاسلام من هذا الوافد الجديد؟ فاما أن نقوم بالتصدى له بوضع منهاج للحياة نستخلصه من القرآن الكريم يثبت به تفوق الاسلام فى هذا المجال بالذات كما فعل اسلافنا فى اثبات اعجاز الدين وتفوقه على ما انتج الفكر البشرى ، واما أن يجرفنا هذا الوافد الجديد فنخسر قضية الدين كله ونتقوقع فى دائرة الحلال والحرام والاتجاه الى الآخرة فيضيع الدين كله ونخسر الآخرة والدنيا معا ، ولا شىء يسر اعداءنا اكثر من هـذا ، فهم يريدون أن يضعوا الدين كله فى دائرة العبادات والحلال والحرام ، اما مشاكل الدنيا فليس للدين موقف ازائها لأنها تتطور بترقى الفكر البشرى وتعقد المشاكل الاجتماعية جيلا بعد جيل . وحينما نجاريهم فى هذا الادعاء نكون قد وضعنا انفسنا فى الفخ المنصوب لنا للقضاء على الدين نفسه — فما عجز الدين عن حل مشكلات الحياة — فأولى ثم أولى ان يكون عاجزا عن مشاكل ما وراء الحياة .

فلشيوعية — وهى فكر صهيونى — ترمى الى هدم الأديان والأخلاق والغاء الغيبيات وبالتحديد ترمى الى هدم الاسلام لغايات سياسية ونزعات دفينة عند اليهود لا محل لتفصيلها هنا — لأن لنا بحثا وافيا حول هذا الموضوع سينشر فى كتاب مستقل — فلما أعجزهم ذلك عن الدعاية المباشرة غيروا تكتيكهم بهدم الدين على خطوتين . بعزله أولا عن حل مشكلات الحياة بقولهم ان الاشتراكية منهج اقتصادى

لاشاعة العدل بين الناس ، والدين مجاله العبادات والغيبيات . فيمكن أن تكون مصالحة بين للدين والاشتراكية على هذا الأساس .. ثم تكون الخطوة الثانية هى : مادام عاجزا عن تقديم الحل السياسى فكيف نصدقه فى مجال الغيبيات ؟ وسيرون أن منطقهم عندئذ معقول ومقبول . ومع أن الحل الذى قدموه يقوم على الاستبداد الذى لم تشهد له البشرية مثيلا فى تاريخها كله وعلى دولة الارهاب والجاسوسية لكبت الأفكار وسحق كل الحريات والعودة بالبشرية الى الهمجية الأولى فانهم يتبجحون ويقولون : ان لدينا منهجا للحياة وليس لديكم هذا المنهج . فبماذا نرد على هذه الوقاحة وهذا الافك والزور ؟ هل يكون بالموقف السلبى كما كنا نقول : ان الاسلام بخير وان الشيوعية لا مكان لها فى بلاد المسلمين ؟ وماذا تقولون لم علمتم ان الشيوعية غزت بعض المستويات الثقافية العليا فانضووا تحت لوائها وأصبح أكثر من نصف حكام العالم الاسلامى من الشيوعيين ؟ ستقولون انهم عملاء . فأقول : وما جعلهم عملاء الا الفراغ الدينى الذى يعيشون فيه وغياب المنهج الروحى الذى يثير أشواقهم الى المثل العليا . فباعوا انفسهم رخيصة لأنهم لم يجدوا المبادىء الحقة التى تعلى قيمة الانسان وقيمة الحياة .. فاذا أثبتنا أن منهج الدين للحياة هو أصدق وأصلح ما قدم للبشرية من حلول كان ذلك عونا على تصديقه فى مجال الغيبيات . وبذلك نقطع الطريق عليهم ونفسد ما دبروه .. فيكون اتباع الدين هو أسمى ما يرضى مطامح الانسان فى دينه ودنياه على السواء .. وهل نكون جديرين بنعمة الدين لو تركنا أمور الحياة لأهواء الفكر البشرى وقصوره واختلاف المنازع وتشتت الاتجاهات ؟ انظروا الى قول الله سبحانه وتعالى : **« من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة »** (١)

---

(١) النساء : ١٣٤ .

والثواب هنا هو النعيم .. فمضمون الآية يقول : من كان يريد نعيم الدنيا وحدها والبحث بفكره عن افضل وسيلة واقوم منهج للحصول على هذا النعيم فان دين الله ليس فيه ثواب الدنيا وحدها ولا الآخرة وحدها وانما فيـــه ثواب الدارين جميعا بما تضمن فى آياته عند النظر السديد لها عن أفضل وسيلة واقوم منهج للحصول على هذا النعيم الدنيوى بحيث لا يستطيع الفكر البشرى وان تعاون عباقرته جميعا على وضع هذا المنهج ، ومع ذلك فان الدين لا يقف بنا عند افضل طريق لأكرم حياة على هذه الأرض فى هذا العمر المحـــدود ولكنه مـــع ذلك ينفرد وحده ليبان السبيل الى ســـعادة الآخرة الخالدة الباقية .. وبذلك نتأكد أن المنهج الدينى للحياة من صلب الدين وفى صميمه يتوجب علينا العمل به كما يوجب علينا العبادات والايمان بالغيبيات فاذا كنا مسلمين فلا مفر لنا من أن نطيعه فى منهجه للحياة كما نطيعه فى باقى الأوامر والا حدث الانفصام الذى يودى بالدين الى التشكك والضياع ولنعلم أن ثواب الدنيا والآخرة معا عند الله لا عند الناس .. وعلينا أن نتذكر أن اقوى طعنة أصابت الدين هى فى هذا الانفصـــام وعزله عن أمور الحياة وتمركزه فى مجال العبادات والغيبيات ، فمهمتنا اليوم هى أولا فى بيان اعجاز الدين فى وضع منهج للحياة ، وثانيا فى العمل به وجوبا لا استحبابا لضمان ســـعادة الدارين كما تبين الآية الشريفة .. وبهذا الفهم الصحيح للاسلام فقد قمت بهذه المحاولة لوضع الاسس الأولى لهذا المنطلق على أمل أن تتبعه محاولات على هذا الطريق تعمق مفهومه وتوسع دائرته حتى نكون جديرين بالقيام بأمر هذا الدين الذى انزله الله رحمة للعاملين .. وسأشير هنا الى بعض الآيات التى تعزز هذا المفهوم فى الربط بين الحياتين يقول تعالى : **« الا أن**

اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون • الذين آمنـــوا وكانوا يتقون • لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » (١) وقوله : **« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون • نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخـــرة »** (٢) ، وقوله : **« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »** (٣) ، وقوله : **« من عمل صـــالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »** (٤) وهكذا .....

فهذه الدعاوى الكثيرة التى يموج بها عنصرنا وهـــذه الوفرة الوفيرة من الفلسفات والنظم التى تحاول شد الانسان اليها والتفافه حولها ثم المحاولة الماكرة لعزل الدين عن الحيـــاة كخطوة اولى للقضاء عليه بعد ذلك لا نجاة لنا منها الا بالايمان بمنهجنا الدينى ومبادرتنا الى تطبيقه ليكون واقعا مشهودا يقطع الطريق على هذه المحاولات فننقذ انفسنا ونقدم للعالم كله خير ما يقدم له لانقاذه من محنته الحاضرة التى جعلته يتجرع كئوس الشقاء على الرغم من تقدمه العلمى والفكرى ، وهذه هى معجزة الدين لعالم اليوم الضائع الذى ضل الطريق .. وهذا المنهج هو حقيقة واردة بالنص القرآنى وليس من قبيل الاجتهاد فيما لا نص فيه ، وغياب هذا المنهج هو الذى جعل الفكر الدينى يتخبط فى اتجاهات مختلفة يحاول الربط

---

(١) يونس : ٦٢ — ٦٤ .   (٢) فصلت : ٣٠ ، ٣١
(٣) ابراهيم : ٢٧ .   (٤) النحل : ٩٧ .

بين الاسلام وبعض النظم الأخرى كالديمقراطية والاشتراكية .. فنرى بعض المفكرين يكتب عن الديمقراطية فى الاسلام وآخر يكتب عن الاشتراكية فى الاسلام وثالث يحاول التوفيق بين الاتجاهين لتلافى عيوبهما فيكتب عن الاشتراكية الديمقراطية ويأتى كتابه تسيجا مهلهلا لأنه يحاول الجمع بين ضدين .. فهل الاسلام عاجز عن وضع منهج مستقل عن الآخرين ؟ .. وبعضهم يقول انه لا علاقة بين الدين والسياسة تكريما له عن الانزلاق فى حبالها ، وبعضهم يريد عزله عن السياسة حتى يخلو لهم الجو فيتجهون الى حيث تريد لهم المطامع والأهواء .. فلو آمنا بهذا المنهج وقمنا بتصديقه فسينتهى كل هذا العبث وسنقطع الطريق على كل انتهازى أو مستبد أو عميل .

وهذا الكشف فيما نعلم هو أروع كشف فى تاريخ الاسلام وهو هدية الله الى العالم فى مطلع القرن الخامس عشر للهجرة ، واذا كان ذلك فلا ادعى أن طاقتى الفكرية أو الثقافية أوصلتنى اليه ولكنه توفيق الله .. ولعل فى هذا ما يعزز ايمان المؤمنين الذين اذهلتهم دعاوى المغرضين والعملاء فوقفوا حيارى بين ايمانهم بقدسية الدين وبين دعاوى المبطلين .. وسيكون هذا أكبر حجة للمسلمين على غيرهم فى مجال اجهد فيه الفلاسفة اذهانهم على مر التاريخ ولن يصلوا الى الحل المريح .. ولابد أن يأخذوا بهذا المنهج اما لصلاح دنياهم على الأقل ، أو يشرح الله صدورهم للدين كله فيؤمنوا به كاملا فيجمع بين سعادة الدارين وعندئذ يغمر نور الاسلام الأرض كلها كما تنعم بنور الشمس من اقصاها الى اقصاها وتصدق كلمة الله : **« كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من**

الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » (١) وحينما نقرأ قوله تعالى : **« انا نحن نزلنا الذكر وانـــا له لحافظون »** (٢) لا يكون المفهوم حفظه من التحاريف فقط .. ولكن الحفظ فى القلوب بالايمان والعمل بتوجيهاته وفى هذا المقام نتوجه باللوم الى هذه الطائفة من المستشرقين الذين درسوا الاسلام وعرفوا ما فيه من نبل وسمو وبدلا من أن ينضـــموا تحت لوائه وينشرون دعوته بين شعوبهم لينقذوها من الضلال راحوا يعملون على النيل منه والطعن فيه وتلفيق الأكاذيب حول معانيه لأن النزعة القومية والتعصب الدينى تغلب على نزعتهم الانسانية فخسروا انفسهم واضلوا شعوبهم فلا معنى للتعصب ضد الاسلام ، لأنه ليس للمسلمين وحدهم ولكنه هداية للبشر جميعا .

نسأل الله أن يوفقنا الى العمل به كما هدانا الى استجلائه انه سميع الدعاء .

***

---

(١) ابراهيم : ١ . (٢) الحجر : ٩ .